النّوميديّون ضحية المصادر القديمة

دة. جهيدة مهنتل
أستاذة محاضرة/ معهد الآثار
جامعة الجزائر2

الملخص:

يتلخص المقال في التطرق إلى التواجد النوميدي بالمغرب القديم وإجحاف المصادر التي لم تتكلّم عنهم إلاّ في ظل الصراع القرطاجي الروماني. وكأنّهم لم يكن لهم وجودٌ قبل القرن الثالث ق.م، بينما تؤكد الحقائق التاريخية والآثار عكس ذلك.

التقديم:

لو حاولنا الرجوع إلى أصل الحضارة النوميدية وبدايتها في المغرب القديم لوجدنا أنفسنا أمام نصوص قليلة مجحفة. وإذا استندنا إليها فإنّ الملوك النوميديين لم يدخلوا التاريخ إلاّ في القرن الثالث قبل الميلاد.

فما كان حالهم قبل ذلك؟

لقد حرصت روما على محو آثار الحضارة القرطاجية، وبها محو الحضارة النوميدية التي كانت متزامنة معها. فقد تم حرق معظم الكتب البونية التي ربما ذكرت شيئا عن هؤلاء النوميديين، ولم يترجم الرومان إلا ما كان يهمهم، مثل كتاب ماجون حول التقنيات الفلاحية.

ولم يبقى تقريبا إلا نص قديم خاص ببعثة بحرية قرطاجية إلى المغرب القديم، بنى من خلالها الباحثون بعض الاستنتاجات حول الحياة الاقتصادية في الفترة البونية، وبعض الرسائل البونية[1].

ولقد ارتبط ذكر اسم الملوك النوميديين في المصادر مع روما خلال الحروب البونية.

[1] – Camps (G), « Aux origines de la berberie, Masinissa ou le début de l'histoire », dans lybica, 1960. PP4-33.

وهي لا تعبر في الكثير من الأحيان عن واقع المغرب القديم قبل المجيئ الروماني.
وإذا قلنا نوميدي فإننا نقول محلي، لأن التسميات تعددت بالنسبة لسكان المغرب القديم.
فعرفوا باللوبيين عند المصريين القدامى، وعند هيرودوت في القرن الخامس ق.م، الذي أعطاهم صفة الرحالة والمزارعين.

ولا يزال البحث في أصول سكان المغرب القديم مفتوحا، ولم توضع نقطة النهاية فيه بعد.

فمثل ما يقول محمد فنطر يجب علينا أن نوسع بحثنا الذي بقي محدودا في اللغة بأن نضيف في دراستنا للأصول المغربية، إلى جانب العنصر اللغوي، العنصر الجغرافي لأن الأعلام الجغرافية تصاغ من طينة اللغة. واستمدت منها أسماء المدن والقرى والجبال والوديان، وهناك عدة عناصر تشترك فيها مناطق المغرب الكبير ككل[2].
وقد تكون عبارة نوميد من أصل محلي أخلط معناه العرقي بمعنى كلمة رحالة عند الإغريق.
ويؤكد كامبس(G.Camps) بأنهم كانوا ضحية الكتاب الإغريقيين الذين أخلطوا اسمهم بصفة رحالة أي أناس دون مدن، ودون قوانين، ودون زراعة[3].
وردد الكتاب الإغريق عبارة نومادس، أمثال هيكاتي(Hecatee) وتيمايوس(Temaius) وديودور الصقيلي (Diodore de Sicile) وسترابون(Strabon) الذي علل كونهم رحالة لكثرة الوحوش الضارية، وقد كرس الرومان التسمية وأعطوها مدلولا سياسيا[4].
وهناك آثار مادية، تؤكد أن كلمة نوميد لها أصل عرقي، وليست صفة فمثلا الاسم القديم لمدينة خميسة بالشرق الجزائري دليل على ذلك Thubursicu Numidarum .
فقد جاءت كلمة numidarum في حالة المضاف إليه الجمع وتقرأ توبورسيكو النوميديين.
فحتى وإن كتب الإسم القديم لخميسة بالشكل اللاتيني في الفترة الرومانية، فإنه كان موجودا بالتأكيد من قبل، فنحن نعلم أن معظم المدن في الفترة الرومانية أبقت على أسماءها القديمة.

---

(2) - فنطر محمد ، "من هم أسلافنا"، في الجزائر النوميدية، متحف سيرتا 2007.ص35.
(3)- Camps (G), «Les numides et la civilisation punique », dans Ant Afr, 1979, P44.
(4)- شنيتي (محمد البشير)، "نوميديا، الشعب والمملكة"، في الجزائر النوميدية، متحف سرتا.2007. ص45.

كما نجد في قائمة الأساقفة في محاضرة قرطاجة 411 م بموريطانيا القيصرية إسم أحد الأساقفة وهوNumida [5] .

وهذا الاسم هو كنية بالتأكيد، فقد كانت الكنية في الفترة القديمة هي الاسم المعبر عن الشخص باتخاذه صفة عرقية كما هو الحال هنا أو صفة جسدية أو روحية.

وتوجد كنية -NUMIDICIUS- في عدة كتابات.

وإن ساهم الكتاب القدامى في إعطاء نظرة غامضة عن سكان المغرب القديم وربطوا تعرفهم على الأسس الحضرية بالمجيء الفنيقي ثم الروماني فإن التاريخ والآثار ينفيان ذلك.

فعندما يصف هيرودوت اللوبيين، فإنه يعطيهم إلى جانب صفة رحالة، صفة المزارعين الذين يقطنون الأراضي الداخلية[6] أي أناس مستقرين.

ولقد أثبتت الآثار المادية أن الحياة الزراعية، بدأت تنظم في المغرب القديم بين نهاية العصر الحجري الحديث، والفترة البونية. وتعطينا رسومات التاسيلي صورة على قدم تعرف سكان المغرب على الزراعة لما تحمله بعضها من تعابير توحي بذلك كما أن المعطيات اللغوية والإتنوغرافية تؤكد على وجود زراعة منذ زمن بعيد.

وإذا تتبعنا الظروف التاريخية لتأسيس قرطاجة، فإنه يتبين لنا أن المدينة عرفت تصدي داخلي، وشروطا لتأسيسها، تؤكد على وجود سلطة يتحكم فيها أناس مستقرين وليسوا رحالة.

فقد كانت قرطاجة تدفع ثمن الأرض التي بنت عليها المدينة مثلما هو مذكور في أسطورة قطعة جلد البقر، والأميرة عليسة الفنيقية، التي أحرقت نفسها حتى لا توفي بشروط الملك الإفريقي حيربس ملك الماكزيتيين[7] .

ولقد وجدت ليس بعيدا عن قرطاجة ، قرية يقترب اسمها -Pagus Muxi- من هؤلاء الماكزيتيين حسب دوزانج(J.Desanges) [8].

---

[5] – Conférence de Carthage 411, Edit Saint Cyprien traduit S.lancel. Paris1975

[6] – Hérodote, Textes explicatifs relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord. Paris 1916.

[7])- Camps (G), «Les numides et la civilisation punique ...., Opcit P44

[8] – Desanges(J), Rex Muxitanorum Hiarbas,Dans philologus n°111, 1967, PP304-308.

فكأن أسطورة تأسيس قرطاجة تقترب من الواقع السياسي، فحتى، وإن حملت هذه الأسطورة جزءا من الخيال إلا أنها تحمل الكثير من الحقيقة، حقيقة وجود دولة قبل قرطاجة امتزجت مع الوجود الفنيقي.

ولعل الانتشار الهائل للمقابر الجنائزية الميغاليتية من دولمن وبازينات، والمتمركزة أكثر في الشرق الجزائري، على غرار المنطقة القسنطينية لدليل آخر، خاصة لما حملته هذه المقابر من أثاث جنائزي.

ولقد كانت مدينة تيديس القريبة من قسنطينة سخية بالاكتشافات الفخارية[9] .

وتعرفنا المصادر بوجود مملكتين لهؤلاء النوميديين هما المملكة الماسيسيلية والمملكة الماسيلية، وقد عرفت هاتين المملكتين عدة تغييرات في حدودهما، وهي تغييرات أنشأتها الحروب، بدأ بالحروب البونية الثانية، وأخيرا حرب قيصر.

وكانت المملكة الماسيسيلة تحتل الجزائر الوسطى والغربية وتمتد من وادي الملوية في الغرب إلى بوقارون شمال قسنطينة في الشرق. (أنظر الشكل رقم1).

ولم تذكر المملكة إلا في القرن الثالث ق.م، عندما أعطى الملك سيفاكس إمدادات للقائد القرطاجي حنبعل في إسبانيا، وهي فترة تسبق بقليل نهاية هذه المملكة التي توحدت فيما بعد مع المملكة الماسيلية التي كانت في عهد سيفاكس صغيرة ومحصورة في الجزء الشرقي لتونس والجزائر[10] . (أنظر الشكل 2).

وربما كان مهد المملكة الماسيلية هوالتل الأعلى التونسي بين مدينتي دوقة والكاف التي دخلت ضمن الأراضي القرطاجية في القرن الثالث ق.م.[11]

وكانت الممالك المحلية تحمل أسماء قبائل أو شعوب، ولم تكن لها قيمة عرقية، فكانت تسمى نوميدية عندما يحكمها ملك نوميدي، وتعتبر مورية عندما يحكمها ملك موري فالعائلة التي تعطي رئيسا للقبائل، هي التي تسيطر باسمها، فلم تكن هذه الممالك دولا وطنية، بل دولا أسرية[12].

---

(9) – Berthier(A) Tiddis, Paris 2000.
(10) – Lassere (J.M), La tribu et le monarqué, dans Ant Af t37 2001. P15.
(11) – Lancel(S), L'Algérie antique, Menges, Paris, 2003, P45.
(12) – Lassere (Y.M), Opcit,…. P151.

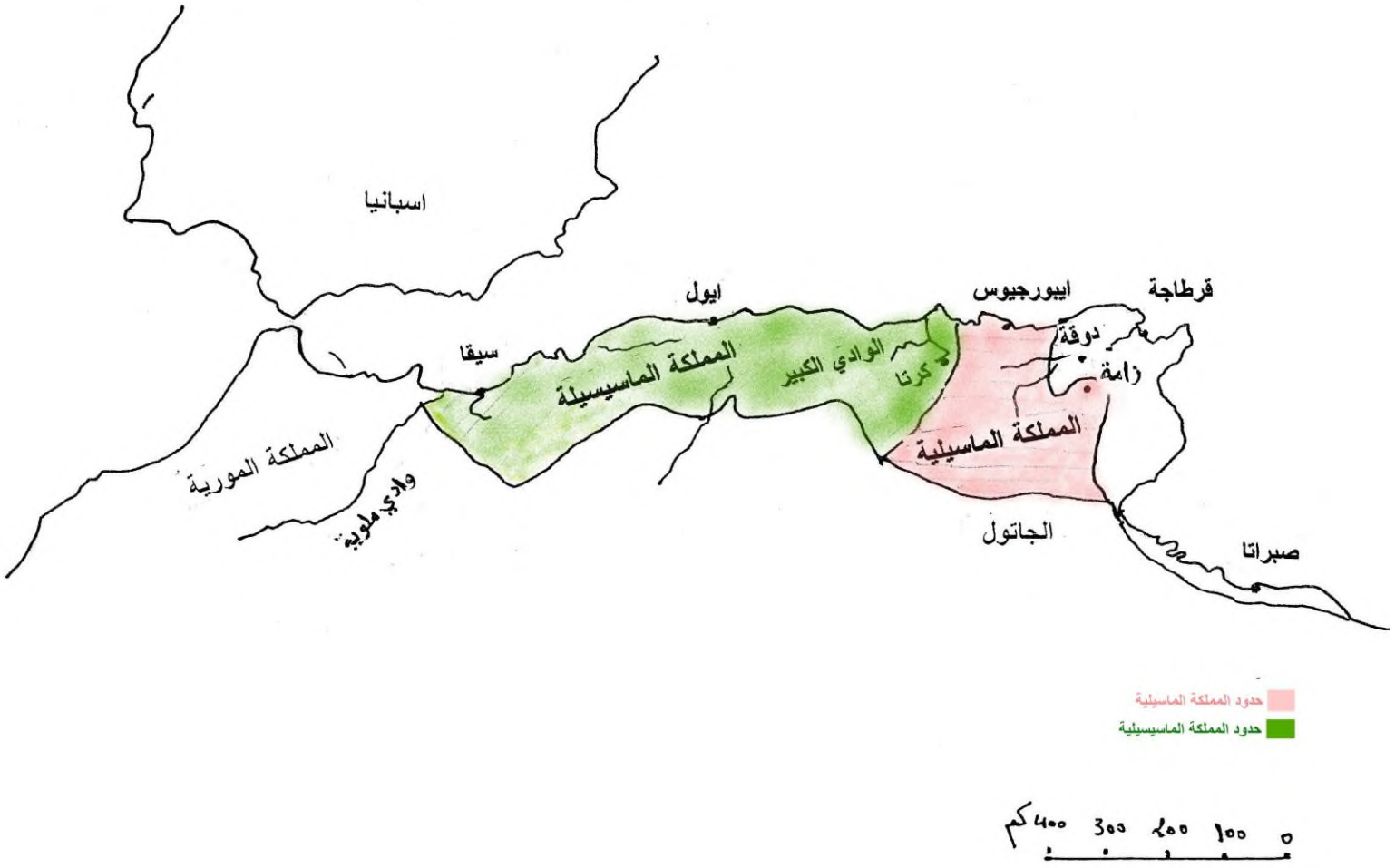

شكل 1 : المملكة في عهد سيفاكس
…. Lancel (s), L'algérie antique ..... , p 264
بتصرف

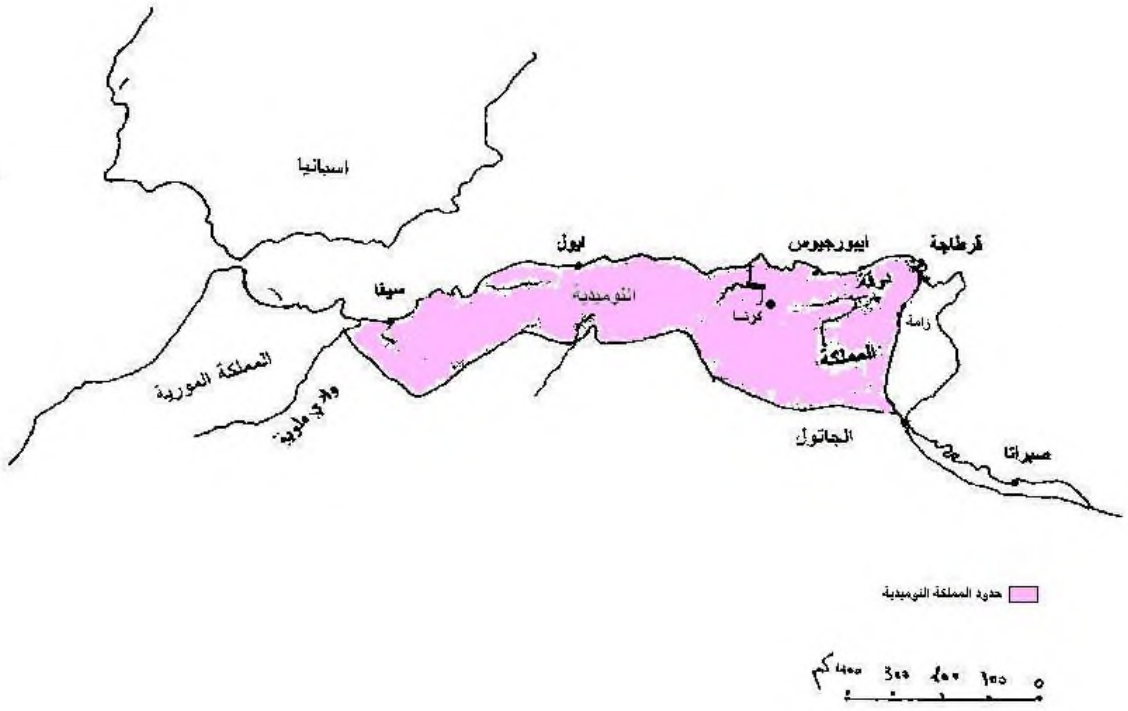

شكل 2 : حدود السلكة النوميدية بعد توحيدها
Lancel (S), L'Algerie antique..P. 264.
بتصرف

فكان أساس الحياة السياسية يرتكز على الشخص وعائلة الملك الذي كان يسمى أغليد بمعنى ملك أو أمير، وتطور هذا الحكم من السيطرة العائلية إلى السيطرة القبلية.

وكانت الروابط التي تشكل نسيج العلاقات بين الأفراد والجماعات قائمة على قرابة الدم، أي أن الإحساس بالانتماء يحركه الولاء إلى العشيرة أولا[13].

وكان هؤلاء السكان يتكلمون لغة لا يزال الغموض يكتنفها ، تنوعت بين لغة شرقية وأخرى غربية، وعرفت إضافات بونية[14]

وقد جاء هذا الاختلاف الذي استمر إلى حد الآن نتيجة للتنوع الجغرافي الذي يعرف به المغرب القديم، والذي حال دون وجود وحدة سياسية منذ القديم.

وعندما دخلت هذه الممالك التاريخ في القرن الثالث ق.م، فإنها ظهرت في شكل ممالك منظمة، متفتحة، ومواكبة لعصرها، وشكلت قوة نشيطة في البحر المتوسط، خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.[15]

وقد لعبت المملكة النوميدية، ومعها العاصمة كرتا دورا هاما، بل رئيسا أثناء حروب روما مع قرطاجة، وأثناء النزاعات الداخلية لروما. فقد كان القادة الرومانيون يطلبون مساعدة الأمراء النوميديين الذين أثبتوا قوتهم، فواجهت روما صعوبات كبيرة في حربها ضد الأمير النوميدي يوغرطة، تؤكد على قوة جيشه، الذي كان يتمتع بعدة سلاح، وقوة تضاهي قوة روما، ويكفي أن نشير إلى أن انهزام يوغرطة كان بفعل الخيانة.

واستمرت روما بالاستعانة بالنوميديين قبل أن تسيطر على بلادهم.

---

[13]– محمد البشير شنيتي، المرجع السابق. ص48

[14] – Galand(L), Le berbere et l'onomastique libyque, dans l'onomastique latine, 1977, PP299-304.

[15] – Therbert(Y), Royaumes numides et hellénisme ,Dans Afrique et histoire, Revue internationale n°3. 2005.

P25

ففي عهد الملك يوبا الأول، وأثناء النزاع بين بومبي(Pompee) وقيصر(Caesar) ، كان يوبا حليف بومبي يمد هذا الأخير بالقمح والجيش الذي كان منظما على الطريقة الهيلينستية، واستعملت فيه الفيلة والبحرية[16]

وكان انهزام القائد كوريون الموالي لقيصر، دليل على قوة الأمير النوميدي، وهو الانهزام الذي لم يرد قيصر الاعتراف به[17]
فليس هناك شك حول هذا الوجود النوميدي الذي ذكرته المصادر وأكدته الآثار.

[16] – Bertrandy(F), « L'aide militaire de juba 1er aux Pompeiens pendant la guerre civile en Afrique du Nord(50.46 AV) », dans Actes du IV colloque sur l'histoire d'archéologie, d'Afrique du Nord, II, Strasbourg 1988. Paris 1991. PP289-297.
[17] – Le Bohec(Y), Cesar, chef de guerre, Dans Africa romana, T15, 2004, PP1603-1616